عندما وصل الإتحاد السوفيتي السابق إلى سطح القمر عام ١٩٥٦ اهتزت أمريكا وعاشت في رعب نتيجة التفوق الروسي وصعوده إلى القمر، بينما هم ما زالوا نائمين على الأرض، اجتمع الكونجرس ليدرس الوضع المستقبلي وما هي الآليات التي تمكنه من الوصول إلى القمر ، وقد جاء التقرير بتوصية رئيسية وهي ، ضرورة تطوير التعليم.

الطريق إلى رأس المال الفكري

د/عبدالرحيم محمد
إدارة التخطيط الإستراتيجي

وفي عام ١٩٨٥ عندما غزت السيارة هوندا الأسواق الأمريكية شعرت أمريكا بالخطر وجاء تقرير الاجتماع الذي عقده الكونجرس بعد عدة شهور بعنوان (أمة في خطر) ركز على توصية واحد وهي ضرورة تطوير التعليم. فالتعليم هو طريق المستقبل، والتعليم هو الطريق إلى المعرفة، ونحن في عصر المعرفة ، ومن يملكها يستطيع أن يملك كل شيء.

ويحكي التاريخ المعاصر الكثير من الأمثلة التي لعب التعليم فيها دورا بارزا في النهوض بالدول، على سبيل المثال اليابان وألمانيا في الحرب العالمية الثانية دمرت بنيتها الأساسية بالكامل. و لكن وفي أقل من نصف قرن عادت وأصبحت في مقدمة الدول.

التعليم هو الذي يجعل الإنسان يستثمر طاقته !

الإنسان عبارة عن طاقة بشرية، ليس لها حدود، ولكن المهم هو كيف يمكن الاستفادة من هذه الطاقة؟، كيف يمكن استغلالها الاستغلال الصحيح الذي يحقق عائدا أفضل؟، ويوضحها هذا المثال بسيط لو أن هناك قطعة من حديد تساوي ١٠٠ ريال لو صنعنا منها حدوات للحصان فيتضاعف ثمنها من ١٠٠ ريال إلي ٢٥٠ ريالا ، وإذا صنعنا منها إبر للخياطة فيتضاعف ثمنها إلي ٦٠٠ ريال ، وإذا صنعنا منها بعض أجزاء الساعات ارتفعت قيمتها إلى حوالي ٥٠٠٠٠٠٠ (خمسة ملايين) ريال فالفارق بين ١٠٠ ريال و٥ ملايين ريال هو استخدام طاقة الإبداع والابتكار التي أودعها الله لدى الإنسان. وهنا يأتي دور التعليم والتدريب في تنمية قدرات الناس وتوسعة مداركهم بما يحقق الأهداف.

البعد عن الانطباعات السيئة،

كان هناك طالب يعتاد أن يذهب إلى المحاضرات وينام طوال المحاضرة ، فحضوره لمجرد الحضور فقط ، حتى لا يحرم من دخول الامتحان ، وكعادته جاء وجلس في الصف الأخير ودخل في نوم عميق، وانتهت المحاضرة وفجأة نظر حوله

وجد نفسه يجلس منفردا داخل القاعة، وقعت عيناه على مسألة مكتوبة على السبورة، قام بتدوينها بسرعة كبيرة في دفتره وظل لمدة أسبوع يتردد على المكتبات لحل المسألة حتى يعرضها على الأستاذ في الأسبوع القادم. ومن خلال جولته والبحث في المكتبات استطاع أن يحل المسألة. وجاء الأسبوع التالي وبعد انتهاء المحاضرة ، تحدث مع الأستاذ وقال له ، أنا توصلت إلى حل الواجب الذي كلفتنا به الأسبوع الماضي، رد الأستاذ أنا لم أكلفكم بأي واجب، قال الطالب ولكنك كتبت مسألة على السبورة، وأنا استطعت أن أحلها ، هنا ذهل الأستاذ وراجع إجابة الطالب ووجدها صحيحة، وقال له هذه المسألة ذكرتها كمثال على الأشياء التي عجز العلم عن التوصل لحلها، ولكنك استطعت أن تحلها.

الفلسفة في هذه القصة أن الانطباعات التي يزرعها الآخرون فينا تعيق وتمنع عن الإبداع والابتكار في تقديم حلول لكثير من المشاكل، وهذه من أهم معوقات الإبداع التي تواجه مجتمعنا، فعلينا أن نترك الانطباعات السيئة والبرمجة السلبية بعيدا حتى نستطيع أن نصل إلى أفكار جديدة.

التحول من ثقافة التلقين إلى ثقافة التذكر :

المشكلة الكبيرة التي تواجهنا في حياتنا جميعا، وتواجه أبنائنا على وجه الخصوص هي طريقة توصيل المعلومة ، كما أن طريقة الاختبارات التي نعتمد عليها تميل كثيرا جدا إلى الحفظ والتلقين، وبالتالي يتحول الطالب من مفكر إلى وعاء لحفظ المعلومات ، هذا الوعاء له تاريخ صلاحية ، ينتهي بنهاية الامتحان ، فالتعليم الذي يعتمد على التلقين هو كذلك، هذا النوع من التعليم لا يحقق أهداف المجتمع، ولا يحقق النهضة والتقدم، ولا يحقق التنمية الإنسانية. وبالتالي زاد الاهتمام حاليا بمفهوم رأس المال الفكري وأصبح الأساس في تقييم وتصنيف المؤسسات، وبالتالي تظهر الحاجة إلى التحول من ثقافة التلقين والحفظ إلى ثقافة التذكر ، انطلاقا من أن الخيال أهم من المعرفة لأن الخيال متجدد دائما أما المعرفة والمعلومات فهي متقادمة وتحتاج إلى تحديث. لا يمكن أن يكون هناك ابتكار إلا إذا كان هناك خيال، ولا يمكن أن يكون هناك خيال إلا إذا كان هناك أفراد يمتلكون قدرات على التخيل، وهذا لن يتحقق إلا إذا كانت هناك منظومة تعليمية وتدريبية تقوم على أسس علمية تركز على أساليب غير تقليدية.

- الإنسان عبارة عن طاقة بشرية ليس لها حدود، لكن كيف يمكن الاستفادة من هذه الطاقة.

- الإنطباعات التى يزرعها الأخرون فينا تعيق وتحد من الإبداع والإبتكار.

الدول الغنية تصرف على العلم لأنها ليست غنية ولكنها تصرف لتكون غنية :

هناك اهتمام كبير على المستوى العالمي بالعملية التعليمية والتدريبية والبحث العلمي، والكثير من الدول تخصص مبالغ كبيرة من موازنتها سنويا لدعم وتطوير البحث العلمي، لأنها تؤمن بأنه الركيزة الأساسية لتحقيق النهوض والتطوير في المستقبل، وهذه الدول تنفق على البحث العلمي وعلى تطوير التعليم والتدريب ليس لأنها دول غنية لديها موارد قوية ، ولكن الأمر له وجه آخر فهي تنفق لأنها تريد أن تكون غنية ، وهذه حقيقة هناك الكثير من الدول حققت نهضة كبيرة لأنها اهتمت بالبحث العلمي، هذه الدول تصدر للعالم الأفكار، فهي لا تمتلك مواد خام أو مصادر طبيعية ولكنها تعمل دائما على تطوير البحث العلمي، لأنه يوفر لها بدائل الموارد الطبيعة وبدائل الطاقة وغيرها من احتياجاتها التي تمكنها من المنافسة.

الدوائر الثلاث:

في كتابه من جيد إلى عظيم Good To great والذي نشر في عام ٢٠٠١ يشير "جيم كولنز Jim Collins والذي كان يعمل في السابق أستاذا بجامعة ستانفورد Stanford University المعروفة، وهو يدير حاليا مركزه للأبحاث الإدارية. هذا الكتاب خلاصة لبحث استمر لخمس سنوات لمعرفة الأسباب التي تجعل المؤسسات تنتقل من المستوى الجيد إلى المستوى العظيم، يرى أن هذه الشركات تحدد اتجاهها باستخدام ثلاث دوائر.

كل دائرة منها تختص بسؤال محدد. فالدائرة الأولى تختص بتحديد ما هو الشيء الذي يمكن أن تؤديه بحماس شديد ؟ والدائرة الثانية تختص بتحديد ما هو الشيء الذي تستطيع أن تصل فيه إلى المرتبة الأولى عالميا؟ والدائرة الثالثة تختص بتحديد ما الذي يحرك ماكيناتنا الاقتصادية ؟ وتحاول هذه الشركات الوصول للشيء الذي تستطيع أداءه بحماس وشغف والشيء الذي تستطيع أن تبدع فيه والشيء الذي يحقق مكاسب اقتصادية.

هذه الدوائر الثلاث لا يمكن تحقيقها في أي مؤسسة من المؤسسات إلا إذا كانت هناك جودة في العنصر البشري وتحقيق الجودة أيضا يتطلب دوائر ثلاث. الدائرة الأولى التعليم المرتبط بسوق العمل، الدائرة الثانية المهارات والمواهب الموجودة داخل الفرد، والدائرة الثالثة هي قدرة المؤسسات على تنمية مهارات الأفراد والبحث عن رأس المال الفكري في المؤسس واكتشافه وتوظيفه التوظيف الصحيح.

تذكر أن القاسم المشترك بين والت ديزني وتوماس إيدسون وألبرت أينشتاين وهنري فورد وابن بطوطة، والرازي وغيرهم من العلماء الذين غيروا التاريخ هو الإصرار والعمل المستمر والرؤية الواضحة والرغبة في أن يكون لهم بصمات مؤثرة في تاريخ الإنسانية. هؤلاء والكثير من أمثالهم هم رأس المال الفكري .